

الدنيا مذهب كتب ورسائل . ولو أنهم تدبروا حكمة الصوم في الاسلام ، رأوا هذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة ؛ فهذا الصوم فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم ، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير ، ومن ملك القرش الواحد ، ومن لم يملك شيئاً ؛ كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبريائهم الانسانية بالصلاة التي يفرضها الاسلام على كل مسلم ؛ وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع فقر إجباري يراد به إشعار النفس الانسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها ، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في السمور لاحقين يختلفون ، وحين يتعاطفون باحسان الأم الواحد لآخرين يتنازعون باحسان الأهواء المتعددة

ولو حَقَّقْتَ رأيت الناس لا يختلفون في الانسانية بقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والماطفة ؛ فمن البطن نكبة الانسانية ، وهو العقل المملئ على الأرض ؛ وإذا اختلف البطن والدماغ في ضرورة مد البطن مدة من قووى الهضم فلم يبق ولم يذر . ومن ههنا يتناول الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناس فيه سواء ليس لجمعهم إلا شعور واحد ورحس واحد وطبيعة واحدة ، ويُحسِّم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة ، ويبلغ في إحكامه فيمسك حواشيه العصبية في الجسم كله بمنعها تغذيتها ولنسها حتى فتنه من دحينه<sup>(١)</sup> . وبهذا يضع الانسانية كلها في حالة نفسية واحدة تلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها ، ويُطلق في هذه الانسانية كلها صوت الروح يُعلم الرحمة ويدعو إليها ، فيُشيع فيها بهذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق ، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغنى للفقير من طبيعته ، واطمئنان الفقير الى الغنى بطبيعته ؛ ومن هذين : ( الاطمئنان والمساواة ) يكون هدوء الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والايجاب في هذا الاجتماع الانساني .

(١) النخبة كلمة وضناها للسيارة ، وجمها دنائ

## شهر للشورة . . . فلسفة الصيام

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لم أقرأ لأحد قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته ؛ أما منقته للجسم وأنه نوع من الطب له ، وباب من السياسة في تديره ، فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك ؛ وكان أيام هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبة تؤخذ في كل سنة لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطة أنسجة الجسم ؛ ولكننا الآن لسنا بصدد من هذا ، وإنما نستوحى تلك الحقيقة الاسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة ، عاملة على استمرار الفكرة الانسانية فيها ، كي لا تبدل النفس على تغير الحوادث وتبدلها ، ولكيلا تجمل الدنيا معاني التزيق إذا أتت على هذه الدنيا معاني التزيق من معجزات القرآن الكريم أنه يدخر في الألفاظ المروفة في كل زمن حقائق غير معروفة لكل زمن ، فيجعلها لوقتها حين يضيح الزمان الملى في متهته وحيرته ، فيشغب على التاريخ وأهله مستخفاً بالأديان ، ويذهب يتبع الحقائق ويستقصي في فنون المعرفة ، ليستخلص من بين كفر وإيمان ديناً طبيعياً سائماً ، يتناول الحياة أول ما يتناول فيضبطها بأسرار العلم ، ويوجهها بالعلم الى غايتها الصحيحة ، ويضع قواها بأساليبه الطبيعية ، ليحقق في إنسانية العالم هذه الشئنة المجهولة التي توهمها المذاهب الاجتماعية ، ولم يهتد إليها مذهب منها ولا قاربها ؛ فما برحت سعادة الاجتماع كالتجربة العلمية بين أيدي علمائها لم يحققوها ولم يياسوا منها ، وبقيت تلك المذاهب كمقارب الساعة في دورتها ، تبدأ من حيث تبدأ ثم لا تنتهي إلا الى حيث تبدأ

\*\*\*

يضطرب الاشتراكيون في أوروبا ، وقد عجزوا وعجز من يحاول تغيير الانسان زيادةً ونقص في أعصابه ؛ ولا يزال مذهبهم في

وإذا أنت زعت هذه الفكرة من الاشتراكية بقى هذا الذهب كله عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الانساني تاريخاً لا طبيعة له

\*\*\*

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم ، وهذا بعض السرّ الاجتماعي العظيم في الصوم ، إذ يبالغ أشدّ البالغه ، ويدقق كلّ التدقيق ، في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاقة . فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ، ولا طريقة غيرها إلا التكبّات والكوارث ، فها طريقتان كما ترى : مبصرة وعمياء ، وخاصة وعامة ، وعلى نظام وعلى فجأة

ومتى تحققت رحمة الجائع الفنى للجائع الفقير ، أصبح للكلمة الانسانية الداخلية سلطانها التافذ ، وحكم الوازع النفسى على المادة ؛ فيسمع الفنى في ضميره صوت الفقير يقول : « أعطني . » ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء ، بل طلباً من الأمر لا مفرّ من تلبّيته والاستجابة لمعانيه كما يواسى المتسلى من كان في مثل بلائه

آية معجزة إسرائيلية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضى أن يحذف من الانسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة ، ليحلّ في محله تاريخ النفس<sup>(١)</sup> ؟ وأنا مستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً ، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم ؛ وأعمال الجسم للنفس ؛ كأنه الشهر الصحى الذى يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير الميثة ، لأحداث التريم المصبي في الجسم ؛ ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الانساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق ؛ إذ تنتفخ المروق وتربو في النصف الأول من الشهر كأنها في (مدا) من نور القمر ما دام هذا النور الى زيادة ، ثم يراجعها (الجزر) في

(١) أفند ضعف القوس هنا المعنى ، فإتحقق الناس (تاريخ البطن) كما يعتقدونه في شهر رمضان ، وم عروضون البطن في الليل ما منوه في النهار ، حتى جعلوا الصوم تقيداً لمواعيد الأكل ... ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده

النصف الثانى حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً . وإذا ثبت أن للقمر أثر في الأمراض العصبية ، وفي مدّ الدم وجزره ، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قروباً دون غيره

وفي ترأى الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر ، وهو - مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها - إثبات الإرادة وإعلانها ، كأنما انبعث أول الشعاع السماوى في التنبه الانساني العام لفروض الرحمة والانسانية والبر

وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم ، وهى عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملى الذى يدرب الصائم على أن يمتنع بلخياريه من شهواته ولذة حيوانيته ، ويقيه مصراً على الامتناع مهتئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصبر ، متزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحول ، ولا تعدو عليها عوادى الفريرة

ولإدراك هذه القوة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية هى في الانسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ؛ ففى هذين تعرض الفكرة مارة مروراً ، ولكنها في الإرادة تعرض لتستقر وتتحقق . فانظر في أى قانون من القوانين ، وفى آية أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فرضت فرضاً لتربية لإرادة الشجب ومتزاولته فكرة نفسية واحدة بخصائصها وملاساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الانسان ، لا خيالاً يمر برأسه مرراً ؟

أليست هذه هى إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الارادة ؟ وهل تبلغ الارادة فيما تبلغ ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مذعنة لفكره ، منقادة لاوازع النفسى فيه ، مُصرفة بالحسّ الدينى المسيطر على النفس ومشاعرها ؟

أما والله لو عم هذا الصوم الاسلامى أهل الأرض جميعاً لآل معناه أن يكون إجماعاً من الانسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة ، لتطهير العالم من رذائله وفساده ، ومحق الأثرة والبخل فيه ، وطرح المسئلة النفسية لتتدارسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله ، فتهبط كل

وعجيب جداً أن هذا الشهر الذي يدخر فيه الجسم من قواه  
المنوية فيؤدونها مضرراً روحانيته ليوجد منها عند الشدائد  
مدد الصبر والثبات والعزم والجلد والخشونة - عجيب جداً أن  
هذا الشهر الاقتصادي هو من السنة كفاية ٨٧ في المائة . . .  
فكانه يسجل في أعصاب المؤمن حساب قوته وربحه ، فله  
في كل سنة زيادة ٨٧ من قوته المنوية الروحانية

وسحّر العظام في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي  
تعرف كيف تدخر هذه القوة وتوقرها لتستمدتها عند الحاجة ،  
وذلك هو سر أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في  
دماهم وأعصابهم ما نجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن السبأ  
والأسلحة والذخيرة

\*\*\*

كل ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم فانما  
استخرجته من هذه الآية الكريمة : « كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا  
كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . » وقد فهمها  
العلاء جميعاً على أنها معنى « التقوى » أما أنا فأولتها من « الاتقاء »  
فبالصوم يتقى المرء على نفسه أن يكون كالحويان الذي شربته  
معدته ، وألا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة ؛ ويتقى  
المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك ، فلا يكون إنسان  
مع إنسان كحمار مع إنسان يبيعه القوة كلها بالقليل من السلف  
وبالصوم يتقى هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه ، فان ما بين  
يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه ، وما خلفه هو الجيل  
الذي سيرت من هذه الطباع والأخلاق ، فيعمل بنفسه في  
الحاضر ، ويسمى بالحاضر في الآتي (١)

وكل ما شرحناه فهو آتقاء ضرر جلب منفعة ، واتقاء

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً ، ومن معجزاته في هذا التأويل التي  
استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة ( يس ) . « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ  
اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . . . »

ويشير الى هذا التأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الصوم  
جنة (ضم الجيم) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرف ولا يجمل ، وإن امرؤ  
قائله أو شاعته ليقول : إني صائم ، إني صائم »

والجنة الوفاة يتق بها الانسان ، والمراد أن يتخذ الصائم أنه قد صام  
ليتق شر حيوانيته وحواسه ، بقوله : « إني صائم إني صائم » أي إني غائب  
عن الفحش والجهل والشر ؛ إني في حسي ولست في حيوانيتي

رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكائنها ليختبر في مصنع فكره  
معنى الحاجة ومعنى الفقر ، وليفهم في طبيعة جسمه - لاني  
الكتب - معاني الصبر والثبات والارادة ، ولبليغ من ذلك  
وذلك درجات الانسانية والمواساة والاحسان ؛ فيحقق بهذه  
وتلك معاني الاخاء والحرية والساواة

شهر هو أيام قلبية في الزمن ، متى أشرفت على الدنيا قال  
الزمن لأهله : « هذه أيام من أنفسكم لامن أيام ، ومن طبيعتكم  
لا من طبيعتي » فيقبل العالم كله على حالة نفسية بالغة  
السمو يتمهد فيها النفس رياضتها على معالي الأمور ومكارم  
الأخلاق ، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالج ،  
وبراها كأنها أجيست من طعنها اليبوي كما نطع هو ، وكأنها  
أفرغت من خناسها وشهواتها كما فرغ هو ، وكأنها ألزمت معاني  
التقوى كما ألزمتها هو . وما أجل وأبدع أن تظهر الحياة في العالم  
كله - ولو يوماً واحداً - حاملة في يدها الشبحة . . .  
فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة ؟

إنها والله طريقة عملية لمسوخ فكرة الخير والحق في  
النفس ؛ وتطهير الاجتماع من خناس العقل المادى ؛ ورد  
هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين ، والحرارة  
من القوانين في باطنها - إلى قانون من باطنها نفسه يطهر  
مشاعرها ، ويسمو بأحاسيسها ، ويصرفها إلى معاني إنسانيتها ،  
ويهدب من زياداتها ، ويخفف كثيراً من فضولها ، حتى يرجع  
بها إلى محور من براءة الطفولة ، فيجعلها صافية مشرقة بما  
يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والاشراق . إذ كان من عمل  
الفكرة الثابتة في النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها  
من الفكر الأخرى . والنفس في هذا الشهر محتبة في فكرة  
الخير وحدها ، فهي تبني بناءها من ذلك ما استطاعت

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر ، بل هو فصل  
تسائي كفصول الطبيعة في دوراتها . ولهو والله أشبه بفصل  
الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السحب  
والغيث ، ومن عمله إمداد الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر  
السنة ، ومن رياضته أن يكسيها الصلابة والانكماش والخفة ،  
ومن غايته إعداد الطبيعة للتفتح عن جبال باطنها في الربيع  
الذي يتلوها